قصة مصرية

أغنيـــــــــة الفنـان

بقلم الاديب محمد السيد محمد المويلحى

فى هدوء كهدوء الموت ، تحركت ستائر الليل السوداء ، وأخذت تحيك من خيوطها نقاباً لتحجب به وجه الطبيعة المشرق !... رفع إلى السماء عينيه فى أناة وبطء ، فاذا نجومها المنثورة ترتعد حيال القمر الباهت ، فذكر فى هذه اللحظة الفراق بآلامه ، واللقاء بهناءته ، ولم يجابه خوالج نفسه طويلا ، وإنما ضحك فى شىء من الجنون وقال : « ألا فليذهب مع الشيطان هذا الوحى الخبيث الذى يسلمنى إلى الوحدة المرة » ، ثم بسط يديه فى الهواء قائلا: « لتكن مشيئتك يا إلهى » ؛ ومن ثم ... مضى إلى أمه وأبيه وأخوته فتلقوه فى كثير من العطف والحنان، لأنهم أدركوا ما فى نفسه من أوصاب دفعتها إليه تلك الأوامر التى حتمت عليه أن يغادر أهله إلى مستقره الجديد بالريف ، ولقد أدرك من جانبه مقدار ما يؤثر به فراقه فى تلك الأسرة الوادعة العزيزة عليه ، فتظاهر بالمرح وهو يقول مخاطباً أهله : « لست أدرى ما يحزنكم ، فإن القرية التى قدر على أن أنتقل إليها طيبة الهواء ، وإن فى أهلها نزوعاً إلى الصفاء والوفاء ، فلا تحزنوا ، فإنى ذاكركم فى كل نفس يتردد به صدرى . . . !» على أن هذه الكلمات المشجعة لم تذهب من لوعة أمه الكامنة ، وفزع والده المروع ؛ ولم تكفكف من هذه الدموع التى جرت على وجوه أخوته كالسيل ؛ ولكنه أخذ يسترهم ويتندر معهم حتى أسلموا أحزانهم إلى الفناء ، وحتى افترت ثغورهم المغلقة عن ضحكات مذبوحة . . . !! وبقيت الأسرة طيلة الليل دون أن يغلق لواحد من أفرادها جفن ، حتى إذا ما احتمل الليل رداءه فراراً من كتيبة الضوء الذى أطلقته الشمس شعاعاً ذهبياً براقاً ، كانت الأسرة فى طريقها إلى « محطة مصر » لتودع فتاها الذاهب إلى «شبين الكوم» ، ويالها من دقائق، تلك التى خذل خلالها الجلد لتنتصر الدموع ، فها هو القطار يتحرك ، وتلك هى أنات الأسرة تشيع آذان فتاها بالطنين الصارخ ؛ ولكن حركة القطار العنيفة قد طغت على هذا الموقف الفاجع ، فاذا الأم والوالد والأخوات وقوف على الأفريز ، وإذا فتانا يتطلع إليهم فلا يرى إلا بيوت القاهرة تفلت من نظراته الحائرة ، لأن القطار أطلق عجلاته ليسابق الريح . . . ! !

ومضى القطار فى سبيله يطوى الأرض ، وينساب كالقذيفة ، حتى أتى « شبين الكوم »

فأفلت فتانا من قيده ، وأخذ طريقه على غير هدى يذرع بقدميه شوارع المدينة ، ولم تكن « شبين الكوم » منتهى الشأو فى رحلته ، وإنما كانت نهايتها فى « مليج » ، فمضى إليها فى حافلة حتى أدركها مع الليل . . . . !

* * *

ورأى محمد أن يستهل صنائعه فى « مليج » بالذهاب إلى منزل « العمدة » حتى يتعرفه إليه ، ويظهره على أنه المدرس الجديد الذى هيأت له الأقدار مستقراً فى هذه القرية ؛ وكان العمدة على شىء غير قليل من الأدب الجم والظرف الرائع ، فأقبل على محمد يمعن فى إكرامه ، ويزيد فى وشائج الترحيب به ، ثم أخبره بعدئذ أنه هيأ له منزلا لسكناه ، وأنه يجدر به أن يصطحبه إليه حتى يسلم إلى حجراته حقائبه .

* * *

وإنها لدار أنيقة رشيقة ، تلك هى الدار التى استأجرها عمدة « مليج » لضيف قريته الجديد ، فما كاد « محمد » يستوعبها حتى حببت إليه مشاهدها المقام ، وحتى قال للعمدة فى شىء من الخجل : « إننى أشكرك ، وخير لى أن أستريح ...! » فتركه العمدة راجياً له ليلة سعيدة . !

ولكن ... هل أسلم محمد جفنيه إلى النوم ؟ لا . وإنما اقتعد مقعداً من النيل فى (الفيراندا) المطلة على « البركة » الصغيرة ، وأخذ يتمعن القمر وهو يسكب الضوء الساحر على هذا الماء الراكد ، وأخذت عاطفة الفن الموزعة فى نفسه تدعو يديه إلى اقتناص « العود » الجاثم فى مستقره ... وكان محمد لامع الصوت ، ساحر النبرات ؛ وكان كل ما حواليه من مظاهر حياته الجديدة باعثاً له على الغناء ...!

وتكشفت أستار الليل لتدفع هذا الصوت الساحر إلى آذان السابلة الذين يدبون فى القرية ، فاجتمعت منهم تحت النافذة حشود ما كان أهنأها بهذا الطرب ، وما كان أسعدها بهذا الوافد الجديد .

وعرفت القرية محمداً من هذه الليلة بأنه صداحها الفرد ، وبلبلها الأوحد ؛ وعرف محمد فى هذه القرية أنها جماع ما فى الطبيعة من سحر ، وما فيها من فتنة ؛ فكانت له جلسات هانئة إلى شاطىء البحيرة الصغيرة ، وطالما غنى على هذا الشاطىء ، وكثيراً ما جمع إليه الرفاق ، ويا طالما هز أعطافهم ، وغمر قلوبهم سعادة وبشراً ...

* * *

ولم يفلت عن ملوق صاحبنا الحسان ، وإنما كانت فتيات القرية وعجائزها يختلسن الساعة التى يغنيها ليتدافعن إليه ، ويعلن الاعجاب به إعلاناً ... ولكنه كان فى غير حاجة إلى مبادلتهن النظرة المغرية ، والبسمة الجريئة ... كان فى غير حاجة إلى ذلك ، لأن قلبه الخلى قد دفع إلى صميمه صورة المعبودة الواحدة ..!!

لمن هذه الصورة ؟

إنها صورة فتاة لقيها تمد أذنيها على الشاطىء لتسكب فيهما سحر صوته... ويا شد ما أبطلت سحره حين ألقى على وجهها المشرق نظراته الحائرة ، وحين مد إلى قلبها وشيجة من قلبه ، وحين رفع بفم الريح إلى جبينها قبلته الطويلة ...

لقد جن بها وكفى ...

ولكنه ماذا يفعل حتى يؤوب بهذا الصيد إلى وكره ؟ إن الحياة الغرامية فى الريف لا تخلق شيئاً غير العار والضغينة ، وهذا هو الفنان الفريد يتمثل فتاته بعيدة عن أنفاسه ، فلا يحتمل الصبر ، ولا يطيق التعلل .

وكانت تفد إلى داره فى الصباح عجوز تصلح أمر مسكنه ، وتقدم إليه فطوره من « اللبن » ؛ فلم لا يسأل هذه العجوز عن فتاته ؟

وفى صوت كله قلق وكله حيرة ، قال محمد يخاطب العجوز : « هل تعرفين الفتاة التى تسكن بجوارنا ؟ » ، فأجابته : « أتعنى توحيدة ؟ » ، فقال : « هل هذا هو اسمها ؟ » ، فأجابته : « نعم ، ولم تسأل عنها ؟ » ، فلم يجبها بشىء ، وإنما أجابها بتوجيه الحديث اتجاهاً لا شأن له بالفتاة ...

على أن العجوز الشمطاء قد أدركت الحقيقة الصريحة ، فمضت إلى « توحيدة » تسر إليها أن معبود القرية تفضل عليها بالسؤال ؛ ثم ترقبت الفرصة السانحة لتلقى على فريستها شباك الكيد...

***

ما أسعد هذا الصباح ! فها هو ذا باب الحجرة التى يرقد فيها « محمد » قد أخرجت منه أنامل « توحيدة » دقات كان من سحرها أنغام تطرب الشجى ؛ وها هو « محمد » يفتح الباب ليسمع الصوت المطروب الذى يطلقه الثغر المحبوب ... وكان ثمة حوار :

— حضرتك سألت عنى ؟

— سألت عنك ؟ !!! أيوه سألت .

— فيه خدمة ؟

— العفو ! مين يهون عليه إنه يخدمك ؟ إنت يا توحيدة أقول لك الحق ...

— إيه بس قول !

— آه .. أقول إيه ، أقول إنك يا توحيدة السعادة اللى ببحث عنها ؟ الأمل اللى عمال أدور عليه ؟

— .....

— ما بتردىش يا توحيدة !!؟

— أرد أقول إيه ؟ أنا خيلانة ؛ أنا برده زيك .

— زيي ! ومين اللي يمنع عنا السعادة اللي بنطلبها سوى ؟ !

وفي حومة الحوار ، تفتح الباب عن شبح العجوز الشائك وهي تقول :

— الله الله يا ست توحيدة ! دا يدري عليك الخسارة دي ! إنت يا اختي طالعة لمين ؟

وأراد محمد أن يتدارك الموقف ، وأن يقرر للعجوز حقيقته التي لا دثار عليها . وأن يظهرها على ما فيه من طهر ؛ ولكن العجوز قد ركبت رأسها الأخرق ، فمضت إلى أم توحيدة تقدم إليها فتاتها مجرمة عابثة مستهترة ، وتهامست القرية بهذا الحادث ؛ ولكن محمداً رأى أن يقتلع جذور القول الفاحش ، فمضى إلى « العمدة » يسأله العون على خطبة توحيدة من أبيها ، ولم يجد في طريق أمنيته عقبات ، فتمت الخطبة ، وصمت القوالون المغرضون وهم يحترقون في دخائلهم احتراقاً .

٥٥٥

وكأنما شاءت الغيطة أن تفارق هذه النفس — نفس محمد — ؛ فبينما كان يهيء لفتاته من أحلامه وأمانيه دعامة يشيدان عليها صرح مستقبل سعيد هانيء ، إذا به يفجع فجيعة كبرى حين تسلم أمر النقل إلى القاهرة ؛ وكم كان يرجو — قبل أن يتعرف إلى « مليج » — أن لا يغادر المدينة الكبرى حيث أهله وقومه ، ولكنه — وقد عرف في هذه القرية توحيدة ، وأصبح قرانه بها على مسافة القذيفة — قد كره القاهرة ، وغمه العود إليها .

وها هو في المدينة يستقبل كل يوم رسائل صحبه في « مليج » ، ويستقبل معها كتب توحيدة ، وفيها ما فيهما من وجد وغرام ، فلا تزيده تلك الكتب إلا إمعاناً في الذهب حتى يبلغ من أطماعه ما يريد .

ولكن ! أية وظيفة تلك التي تقف بينه وبين حرية السفر إلى « مليج » ليطمئن على فتاته ؟ لم لا يطلق الوظيفة ويطلق لنفسه العنان ، فيتم ما بدأه من دراسة الموسيقى ليكون بعدئذ فناناً حقاً ؟

لقد استقال محمد إذن من وظيفته لإستقبل حياته الجديدة . ولكن أية نكبة كبرى تلك النكبة التي هيأتها له الأقدار ، والتي اكتوى بنارها اللاذعة حين طلعت عليه هذه الرسالة التي وفدت عليه من « مليج » ، والتي كان كل ما فيها أن « توحيدة » قد خطبت إلى ع .. باشا أحد السراة البارزين في « شبين الكوم » .

ليس في مقدور أحد أن يصور هذه الفادحة ، ولا أن يسجل تلك الكارثة الكبرى ؛ ولكن الهزال الذي أصاب محمداً فأقعده يستطيع وحده أن يصور كل شيء .

وكم ارتاعت أسرة محمد لهذه الظواهر الجديدة التى انتهت إليه ، فقد كان دائم الذهول يتعشق العزلة ، ولا يطيق إلا صحبة « العود » ؛ وما زالت أمه به حتى أظهرها على أمره ، وما زالت تخلق له أسباب الجلد والسلوى ، ولكنها كانت لا تخلق فى صدره إلا آلاماً وأوجاعاً .

على أن النكبة التى اكتنزها له الزمن كانت أروع وأفجع ؛ فقد وفد على منزله أحد أصدقائه السراة الذين تعرفوا إليه فى « شبين الكوم » وأخذ يقص عليه :

— بق يا محمد انت تعرف صديق ع . . باشا . — أعرفه قوى .

— المسألة إنه رايح يجوز الليلة الجية ، وانا عاوز أفاجئه مفاجأة تخليه فى غاية السرور ، وانت أصبحت لك صيتك فى الطرب ، ولك مكانتك فى شبين ؛ فأنا أرجوك ما تكسفنيش وتيجى تحيى لنا الليلة دى . . إيه رأيك بق ؟ — بكل سرور . .

شهد السرادق الفخم الذى يمتد أمام سراى « ع باشا » فى شبين الكوم ما لم يشهده سرادق غيره من هذه السرادقات التى تحتشد بالوافدين عليها فى ليالى الأفراح . . . فثمة آلاف من الناس الذين جمعهم هـذا السرادق من كل أطراف المدينة ومن أشتات القرى والدساكر ، وكانت « مليج » تكتظ بأجمها فى هذا السرادق ، لأنها تقدم إلى العريس — الخشن الجاف — بنتها البكر .

وشهدت منصة الطرب ما لم تشهدها أشباهها فى كل العصور ، فها هو ذا محمد يطلع على الجماهير متوسطاً رجال تخته ليرسل السحر إلى أسماعهم ويدفع الطرب إلى دخائل نفوسهم ، بينما يتأرجح قلبه فى دقاته ، وتتابع عينه بالدمع الواطف صدى لياليه وآهاته .

ولقد صارع الموقف الصعب ما شاءت له قوة الجلد ، ولكنه بعد « الوصلة » الأولى خر مغشياً عليه ، وأولئك الذين شهدوا هذه الليلة من « مليج » قد أدركوا السر الدفين ، فمضوا إلى تلك الجنة ومعهم طبيب من المدعوين ليعيدوا إليها الحياة .

ولكنها كانت جنة هامدة . ؟

محمد السيد محمد المويلحى

أيها المشـــــترك !!

إن « المعرفة » تفخر كل الفخر ، وتنيه على غيرها ، بأنها مجلة المثقفين والعظماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء فى جميع أنحاء الشرق العربى .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما تبذل فى سبيل « المعرفة » من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .

أبواب المعرفة